

ديوان

الموْثِقُ

□ من شعر

□ صلاح الدين القوصي

□ (الجزء الثامن)

□ الطبعة الأولى

□

□ رمضان ١٤٢٣هـ - نوفمبر ٢٠٠٢م

□ وقف لله تعالى لا يباع

(١)

حَالِي

﴿ حَالِي ﴾

بِسْمِ الْمُهَيَّمِينَ فِي الْوَرَى الْخَلَاقِ
بِسْمِ الْإِلَهِ الْوَاهِبِ الرَّزَّاقِ
وَيَحْمَدِ رَبِّي قَدْ بَدَأْتُ كِتَابَتِي
يَا رَبُّ فَاقْبَلْ مَا حَوَّتْ أَوْرَاقِي
وَاسْمَحْ إِذَا أَخْطَأْتُ وَاعْفِرْ زَلَّتِي
قَدْ هَدَّنِي مَا فِي الْحَيَاةِ الْآلِقِي

أنا واقفٌ في بحرِ نُورِكَ لا أرى
شطاً ولا قاعاً لأُسْنِدَ ساقِي
أنا حائرٌ بينَ الجمالِ وعِزِّهِ
وكمالهِ .. والكلُّ دارَ سَواقِي
لا فرقٌ بينَ جلالهِ وجمالهِ
جَهْلَ الذي يَرُؤُ لِعِيرِ السَّاقِي
هو واحدٌ.. والكلُّ بعضُ صِفاتِهِ
فاتركُ صِفاتٍ .. وارتفعَ للِرَّاقِي
ما تَمَّ إِلَّا اللهُ.. فانظُرْ كَيْ تَرَى
إِنْ شِئْتَ توحيداً على إِطلاقِ

عَزَّ الْإِلَهُ وَجَلَّ فِي سُلْطَانِهِ
وَالْكُلُّ فَانَ وَهُوَ حَيٌّ بَاقِي

ياسيدى.. أنا تائه في كونكم
ما عدت أفهم ما أرى وألاقى
والكون يطحن .. لا يقر قراره
والكل يجرى في جنون سباق
يدو يصير إلى الختام.. وينتهى
وكأنه ما طاف بالآفاق !!
كبر الصغير .. وصار شيخاً فانياً
ومضى الكبير كنفحة الأبواق

والكلُّ صَوْتُ فِي الْفَرَاغِ مُجَوِّفٌ
يَأْتِي وَيَذْهَبُ مِثْلَ خَيْلِ سِبَاقِ
وَانْفِضْ عَالَمَهُمْ .. وَقَالَ حَكِيمُهُمْ:
نَوْمٌ أَتَانَا .. وَأَنْتَهَى بِفَوَاقِ
مَا تَمَّ إِلَّا اللَّهُ .. أَنْظِرْ وَاحِدًا
جَلَّ إِلَهُهُ وَعَزَّ وَجْهُ الْبَاقِي
أَيْنَ الْعِبَارَةِ .. وَالْإِشَارَةِ .. وَالَّذِي
زَعَمَ الْفُتُوحَ لَهُ كُؤُوسَ السَّاقِي !!
نَبَتْ نَمَا .. وَتَبَعَثَتْ أَوْرَاقَهُ
ثُمَّ الْفَنَاءُ أَوْدَى بِذَرِّ الْبَاقِي
وَإِذَا بَزَرَ غَيْرُهُ يَنْمُو بِهَا
وَيُعِيدُ كَرَّةً مَا مَضَى بِسِبَاقِ

والكلُّ يبدو جاهلاً في علمه
والجهلُ يركبهُ إلى الأعناقِ
حتى إذا ما مات أدركَ أَنَّهُ
قد عاش تحت الجهلِ في استغراقِ

قالوا .. وقالوا .. والفتوحُ إمامنا
والعلمُ فينا طيبُ الأعراقِ
وتخيلوا .. وتوهموا .. وتصوروا
بل أقسموا بالحقِّ والإحقاقِ
ورنوتُ أنظرهمُ وإذُ بجهالةِ
تركتُ سليمهمُ بعقلِ معاقِ

والأمرُ وهمُّ !! والنُّفوسُ مطيِّةٌ
والنَّفْسُ تُسْرِى فى غُرُورِ مَرَاقِي
واللَّهِ ما نَظَرُوا.. ولا ما شَاهَدُوا
إِلا نُفُوسَهُمْ بِشِقِّ زُقَاقِ !!
أما الأُولو فَتَحَ الكَرِيمُ قُلُوبَهُمْ
سَجَدُوا!! وما باحوا على الإِطلاقِ

هم شاهدوه.. ووجدوه.. وقد فنوا
فيه .. فتاهوا عند بدءِ مذاقِ
لكننى لما سجدتُ عبُودَةً
ووقفتُ أرقبُ أبحرَ المشتاقِ

وَإِذَا "بَلِيلِي" أَشْرَقَتْ فِي نُورِهَا
فَالْعَقْلُ طَاشَ وَتَاهَ مِنْ إِحْرَاقِ
وَلَطَمْتُ خَدِّي .. بَلْ شَقَقْتُ ثِيَابَنَا
وَعَشَيْتُ مِنْ هَذَا الْجَمَالِ الرَّاقِي
قَالُوا: كَفَرْتَ!! فَقُلْتُ: مَا كَفَرَ الَّذِي
مِنْ نُورِ ذَاتِ اللَّهِ فِي اسْتِعْرَاقِ
خَدِّي تُرَابٌ .. وَالثِّيَابُ نَجَاسَةٌ
وَالنُّورُ طَهَّرَ تُرْبَةَ الْمَشْتَاقِ
وَبُهِتُ مِنْ خَيْرٍ آتَى فِي لِحْظَةٍ
وَذَهَلْتُ حَتَّى حُجِّرْتُ أَحْدَاقِي
كُلِّي مَعَاصِي .. لِمَ أَجِدُ لِي سَاتِرًا
وَالدمعُ أَغْرَقَ مَهْجَةً وَمَاقِي

بل أين أذهب .. والوجود بأسره
"ليلي" فأين أفر من أوساقي !!

وتبسمت "ليلي" فمت من الحيا
ياليتني قد مت قبل تلاقى
قالت: سلام.. قلت: لى!! قالت: نعم
من يغفر الأخطاء غير وفاقى!!
وسجدت .. قالت: كلكم عبد لنا
والكل خطأ .. وفضلي واقى
قلت: اغفر لى.. قالت: انهض.. إنما
بالفضل تدخل نور قدس رواقى

قلتُ: الثناءُ لكم وحمداً لائقاً
قالت: أحبُّ الحمد.. فهو صدّاقِي
قد عزَّجَاهُكَ.. قلتُ: أخطبُ وُدَّكُمْ
قالت: تَهَيَّأْ لِي بغيرِ نفاقِ
لا تطلبُنْ غيرِي.. وكنْ لِي ناظراً
فالكونُ ما فيه سوى أخلاقِي
إني أحبُّكَ.. قلتُ: لكنْ عاجزُ
ما أرتجى منكم سوى الإِشراقِ

قالت: تادَّبْ عندنا.. واسمع.. وكنْ
عبدِي بِحَقِّ كِي تری أرزاقِي

واسمع .. وُصُنْ ما بيننا إِلا الذى
أُمرى بأن تُبدى بلا إِغلاقِ
هذا لأهلى .. إنما مَنْ غَيْرُهُمْ
فاسكُتْ وَكُنْ صَمْتاً بلا إِنطاقِ
قلتُ: الذنوبُ كَبيرةٌ فى حَقِّكم
قالتُ: وَغُفرانى على الآفاقِ
قلتُ: استحيَتْ وَحَقِّكم مِنْ فَضلكم
قالتُ: حياؤُكَ فىهِ مِنْ إِشفاقى
قلتُ: اجعلينى عندَ قُدْسِكَ طاهراً
قالتُ: سَتَّبِعُ ما قَصَتْ أوراقى
تعلو .. وتهبطُ .. كُلُّكم خَطأٌ بكم
وأنا أتوبُ على الذى يرواقى

قد بَشَّرْتُمُونِي قَلْتُ: قَبْلًا بِالْمَنِي
قَالَتْ: مَتَى شِئْنَا أَتَتْ أَرْزَاقِي
مَدَّيْ إِلَيْكَ الْفَضْلَ دُونَ فِعَالِكُمْ
أَوْ قَدْ ظَنَنْتَ الْفَضْلَ بِاسْتِحْقَاقِ!!
إِنِّي أَنَا الْوَهَابُ.. فَافْهَمِ حِكْمَتِي
وَمَتَى أَشَاءُ أَتِي إِلَيْكَ السَّاقِي
لَا مِنْكُمْ فَعْلٌ.. فَإِنِّي فَاعِلٌ
وَأَنَا الَّذِي أَعْلُو عَلَى الْأَعْنَاقِ
فَافْهَمِ وَكُنْ مَتَادِّبًا فِي قَوْلِكُمْ
يَعْلُو بِكُمْ فَضْلِي وَعَقْدُ وَثَاقِي

قلتُ: اجعلى لى آيةً أَرْضى بها
قالت : تجاوزَ عَبْدُنَا مِيثَاقِي !!
لكنْ إِلَيْكَ عَطَيْتِي .. فافرح بها
قُلْ لى : أتعلمُ أينَ فيكَ وِثَاقِي !!
عبدى أخذتُكَ منذ قلتَ لنا "بلى"
ولأنتَ فى دُنيا الخلائقِ باقى
قل لى : أتعلمُ أينَ أنتَ من الدُّنَا !!
والناسِ حولك فى هَوَى وشِفاق !!
أَدْرَيْتَ يا مسكينُ أَنَّكَ عِنْدَنَا
قلباً وروحاً.. قَدْ رَكِبْتَ بُراقِي !!
وتركتُ فوقَ الأرضِ جِسمَكَ لاهِثاً
لا يَسْتَقِرُّ .. وَقَدْ رَأَى إِشراقِي

فِي غُرْبَةٍ عَنِ كُلِّ مَنْ هُمْ حَوْلَكُمْ
وَالكُونُ ضَاقَ بِكُمْ بِغَيْرِ رِفَاقِ
وَأَخَذَتْ نِيَّتَكُمْ وَقَلْبَكَ عِنْدَنَا
وَتَرَكْتَ جِسْمَكَ زَائِغَ الْأَحْدَاقِ
لَا أَنْتَ فِي الدُّنْيَا وَلَا حَتَّى مِنْ
الْأُخْرَى تَسِيرُ بِرِجْلِكُمْ وَالسَّاقِ
مَنْ عِنْدَنَا لَا يَعْرِفُونَ كَيْانَهُمْ أَبَدًا
مَتَى يَبْدُو سَنَا إِشْرَاقِي
قُلْ لِي أَتَرْجُو غَيْرَ هَذَا آيَةً
وَالكُونُ يُحْمَلُكُمْ عَلَى الْأَعْنَاقِ !!

قلتُ: السلامُ عليكِ أطلبُ غفرَكمُ
عقلي تَفَجَّرَ في هَواِ الآفاقِ
إني استحييتُ مِنَ الرِّسُولِ ونورِهِ
قالتُ : حبيبي .. رحمةُ الخَلِاقِ
هو "جَدُّكمُ" .. والجَدُّ يحنو دائماً
مهما يَشِطُّ بكم هوى العُشَّاقِ
ولسوف يرضى عنكم .. أبشِرْ إذاً
ولأنتِ منه - وإن زَلَّتْ - الساقى
ما غيرَ نورِ "محمدٍ" أنسُ لكم
وهو الذى لِعُضائِكُم تَرياقى
والصحبُ منه .. وآلهُ .. أحبابكم
وهمُ لكم سيفٌ ودرعٌ واقى

لكنَّ غيرهمُ - وإنَّ قَدراً عَلَوا -
قَد مِنْكَ غَارُوا مِنْ سَنَا أَرْزَاقِي
وأنا المهيمنُ .. لا يُرَدُّ قِضَاؤُنَا
لا يَسْأَلَنَّ الخَلْقُ عَن إِغْدَاقِي
فأهدأ .. ولذُّ "بالمصطفى" فهو الذي
هو كِفْلُكُمْ وَكَلَامُهُ مِصْدَاقِي

"جَدِّي" سلامٌ عَاطِرٌ مِنْ رَبِّنَا
أَبْدَأُ عَلَيْكَ مُعْطِراً أَوْرَاقِي
زاد الحيا مني .. فجتتك راجياً
يا رحمةً عَظْمَى مِنْ الخِلاقِ

أنا سيدى من كل شىء لائذُ
بالباب أرجو منحة الرزاقِ
دنياى قد أفسدت.. والأخرى معاً
وفقدتُ أنسى من صفي رفاقي
أنا ميتٌ حى .. يحيطُ بيَ البلاءُ
من كل صوبٍ دون حصنٍ واقى
منها أمورٌ خاننى فيها الهوى
والبعضُ منها يَرتجى إغراقى
بعضٌ يريدُ الموتَ لى فى لحظةٍ
والبعضُ منهم يبتغى إحراقى

كيدٌ وغلٌ .. فيه حقدٌ حارقٌ
حتى يجنَّ جِيءَ بالسُّراقِ!!

"جدي" أنا المحسوبُ عندك سِبْطُكُمْ
ولكم بثتُ الحبَّ من أشواقِي
أنا ليس لي إلَّاك عِصمةُ أمرنا
مهما زلتُ من الهوى وأُلاقِي
لا حول لي أبداً .. ولا لي قُوَّةُ
وجهادُ نفسي دائمُ الإخفاقِ
أنا هكذا .. فلقد عَلِمْتُ بطينتي
السُّفلى .. ومهما ترتقى آفاقِي

أنا ريشةٌ في بحرِ أجواءِ الهوا
بين الذُّرَا .. وتَحُطُّ في الأعماقِ
لم أدْرِ أين أنا!! أروحي أُطِلِّقَتْ
أم أنَّ نفسي في سجونِ وثاقي
طَوْرًا أرى الأكوانَ ذرًّا فانيًا
والكعبةُ الكبرى يصدُرُ رواقِي
فأعيشُ منشرحًا .. ولكن لحظةً
مِنْ بعدها أهوى إلى الأعماقِ
أنا.. من أنا!! ما لي أُخَلِّطُ ماجنًا
وكأنَّ عقلي صار في إغلاقِ
بل لا أراهُ معي .. وقلبي مثله
طارا.. فَصِرْتُ بِخَيْبَةِ الأخرَاقِ

أَيْنَ النُّهَى وَالْعَقْلُ!! أَيْنَ بَصِيرَتِي!!
بَلْ أَيْنَ أَنَا وَأَيْنَ مَذَاقِي!!
أَعِيشُ فِي الدُّنْيَا تُرَى أَمْ أُنْتَى
بَيْنَ الْعَوَالِمِ بُعْثِرَتْ أَوْرَاقِي
بِاللَّهِ دُلُونِي .. وَقُولُوا مِنِّي!!
مِنَ أَيْنَ أَشْرَبُ سَيِّدِي وَأُسَاقِي!!
شَيْبِي كَسَى رَأْسِي وَصَارَ عَجِينَةً
بَيِّضًا وَأَنْذَرَ بِالْفَنَاءِ وَفِرَاقِي
وَالجِسْمِ يَبْلَى .. فِيهِ أَسْقَامٌ فَشَتَّ
لِحْمًا وَعَظْمًا صَارَ كَالْأَوْرَاقِي

وأنا الجهولُ .. ولست أدري مَنْ أنا
والروحُ تجهلُ صُحْبَتِي وَرِفاقِي

يا سيِّدي بالبابِ جئتُك لاِذْناً
ولأنتَ حصنُ الحائرينِ الواقِي
باللَّهِ خُذْ يَدِي .. فَأِنِّي مُجْهَدٌ
ورجوتُ فيكم رَحْمَةَ الخالِقِ
خذني إليك .. فقد سئمتُ من الدُّنْيا
والصِّدْرُ ضاقَ بَعْرْبَتِي وفراقِي
بشَّرْتَنِي قَبْلاً .. فَأَيْنَ يِشارَتِي !!
ولأنتَ أَصْدَقُ صادِقِ المِصْداقِ

طال الزمان.. وَعَيْلَ صَبْرِي.. ضائقاً
صدراً وروحاً مِنْ ظلامِ وثاقي

صَلَّى عَلَيْكَ اللَّهُ يَا نُورَ الْهَدَى
يَا نُورَ عَرْشِ اللَّهِ فِي الْآفَاقِ
أَعْلَى صَلَاةِ شَعٍّ مِنْهَا نُورُهَا
لَا يَرْتَقِي لَجَلَالِهَا مِنْ رَاقِي
فَتَكُونَ فِي غُسْلِي طَهُوراً طَيِّباً
وَتَصِيرَ فِي كَفْنِي ثِيَابَ عِتَاقِي
وَتَكُونَ فِي قَبْرِي أَنْبَسَةَ وَحْشَتِي
وَبِهَا إِلَيْكَ أَمْدٌ حَبْلٌ وَثَاقِي

(٤٣)

فتكون في حشرى معية روحنا
ولحامل "النَّعْلَيْنِ" ظلُّ واقى
صَلَّى عَلَيْكَ اللَّهُ حَتَّى تَرْتَضِيَ
مِنَّا الصَّلَاةَ فَأَرْتَضِيَ بِمِذَاقِ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ جَلَالُهُ
أَنَّى عَرَضْتُ الْحَالَ فِي أَوْراقِي

*****□

*****□

*□



□ مكة المكرمة

□ فبراير ٢٠٠٣ - غرة ذي الحجة ١٤٢٢

